عشرة أيام فى الشام (*)

للأستاذ على الطنطاوى

يمضى المسافر أياماً طوالا لا يقطع فيها إلا أذرعاً من طريقه، ثم يجتاز الفراسخ والأميال فى ساعات، ويعيش المرء سنين لا يفهم فيها من أسرار الحياة، ولا يرى من معالم الكون إلا الأقل، ثم يرى فى لحظة أخفى المعالم، ويفهم أعمق الأسرار، وكذلك كان شأنى:

سرت على طريق العمر قريباً من أربعين سنة، فلم أدرك من حقائق الحياة حولى، ولم أعرف من خلائق الناس، مثل الذى أدركته وعرفته فى هذه الأيام العشرة التى (طرت) فيها فجأة إلى دمشق، ثم عدت طائراً منها، وعلىَّ دين أكاد أعجز عن قضائه، ووراءى عدو ألحَّ على بإيذائه وهجائه، وذو سلطان غضبان علىَّ لا أعرف السبيل إلى استرضائه. ولكنى مع هذا عدت رابحاً لأنى تعلمت فصولا من كتاب الحياة كنت أجهلها، وهذا قليل من كثير مما تعلمت:

— ١ —

كان أقصى علمى بالصديق أنه الذى يألفنى وآلفه، ويأنس بى وآنس به، ويسأل عنى إن غبت، ويزورنى إن حضرت، ويستقبلنى إن زرته، ويصنى إن حدثته، وكنت أعتزّ بصداقات رجال أحسبنى نلت بهم ما تمناه المأمون وهو خليفة وعجز عنه، وماعدَّه الأولون ثالث المستحيلات، وحشروه مع الغول والعنقاء ولم أحتج إلى واحد منهم كى أجربه، فلما كانت هذه التجربة (تجربة دخول الانتخابات) رأيت أكثر هذه الصداقات كأنها بقايا ثلوج الشتاء، تحت شمس الصيف، سرعان ما يذهب بياضها ونقاؤها، ثم تذوب ثم تجرى على التراب فتكون سواقى عكرة تنحدر إلى الحضيض، بعد أن كانت فى العلاء. ما بقى بين يدى من هذه المودات، إلا كالذى يبقى من هاتيك الثلوج على صخور الجبل!

لقد تنكر لى رجال كانوا رفاق فى السفر وفى الحضر، وإخوانى فى الصبا والشباب، وأعرضوا عنى إيثاراً للراحة، أو هرباً من إغضاب الحكومة، أو فراراً من المشاكل، وحبسوا عن مساعدتى أقلاماً لهم وألسنة طالما شددت أزرها، ودافعت عنها بقلمى ولسانى، وأمسكوا عن نصرتى أكفاً طالما امتدت إليها — مصافحة مؤازرة — كفى. وقالوا، ما لنا ولمرشح نساعده على الحكومة، ونقويه عليها، وهى ذات السلطان، وبيدها العطاء والحرمان؟

ونسوا أنى موظف فى الحكومة، لست عدواً لها، ونسوا عهود الإخاء، وأيام الصفاء. هذا وما سقطت السقطة التى لا يرجى لها قيام، ولا كنت تاجراً أفلس، ولا موظفاً عزل، ولا صحيحاً أزمن، ولا حكم على بسجن أو نفى، وبقى عيالى من بعدى أمانة عند الصديق، وإنما هى تجربة هينة، فكيف لو كان شىء من ذاك؟ وعلى من أعتمد بعد اليوم؟

سأعتمد على الله ثم على هؤلاء الذين وجدت من إخلاصهم، وحبهم، وعطفهم علىَّ، أيام العسرة، ما هو أثمن عندى من النيابة والوزارة، ومناصب الأرض كلها. ولن أنسى أبداً أن هؤلاء هم الذين أبقوا على القليل من ثقتى بهذا الإنسان وأنقذونى من أن أكفر به كفراً مركباً تركيباً مزجياً كحضرموت... لا يستطيع أخونا عبد المنعم خلاف أن يحمله أو يزيله ولو أنزل عليه فى دينه الجديد كتاب آخر؛ وأن أومن بأن الكلاب والحمير أوفى من الناس وأحفظ للوداد.

— ٢ —

وكنت أحسب كل متظاهر بالتقى تقياً، وكل لاهج بذكر التصوف صوفياً، وكل مزهد فى الدنيا زاهداً، وكل داع للعبادة عابداً، وأحبهم جميعاً وأراهم أهل الدين، وأرباب الإخلاص، ولا يبلغ وهمى أن يكون فى الألف منهم مراء واحد أو خداع، فلما جربتهم وجدت...

لا أحب أن أقول ماذا وجدت منهم، لأنى أظلم العلماء إذا أخذتهم بجريرة نفر تسلطوا على (رابطة العلماء) التى هللنا لظهورها وباركنا يوم إنشائها، وسيروها على هواهم، وكفوا أيدى العلماء الأجلاء من أعضائها

(*) تتمة قصة (ثلوج حزيران) فى العدد الآتى إن شاء الله.

ولـكن أقول إن الصالح المصلح ، والعالم العامل ، هو من يجعل هواه تبعاً لحكم دينه ، ويضيع منفعته إن كان فيها مضرة أمته ، ويؤخر نفسه ويقدم من هو أصلح منه ، ويحكم الشرع فى دقيق أمره وجليله ، وظاهره وخفيه ، أما تكوير العمة ، وتطويل اللحية ، وحسن الكلام ، وسائر هاتيك المظاهر ، فهو آخر ما يستدل به على الصلاح وهو أهون شيء عند الله الذى لا ينظر إلى الصور وإنما ينظر إلى السرائر ، وعند الناس .

— ٣ —

وكنت أكبر هؤلاء الذين وقفوا أنفسهم على الجمعيات الخيرية ، وقصروا عليها جهودهم وآثروا خدمة أمتهم على راحتهم ، وأراهم مثلا فى الاخلاص من أعلى الأمثال ، لأنى لا أسمع عنهم إلا الرغبة فى إعلاء كلمة الله ، واحقاق الحق ، وإذاعة الخير ، فلما بلوتهم فى هذه الأيام العشرة وجدت أكثر الجمعيات يسيرها رجل أو رجال ، يستبدون بها ، ويسمون لها أعضاءها ممن يعرفونهم موافقين لهم ، ووجدت فى هؤلاء ، على إخلاص بعضهم وأمانتهم ...

أأقول ماذا وجدت ، فأضع فى أيدى خصوم الإسلام سلاحاً جديداً يقاتلون به أهله ؟ أم أسكت عن بيان الحق ؟

المسألة مشكلة ..

وأنا أسأل الله أن يعجل اليوم الذى نجد فيه رجال هذه الجمعيات قد نسوا نفوسهم وأهواءهم فجعلوها كلها جمعية واحدة ، لها فروع وأقسام ، اذ لا يعقل أن تتعدد الجمعيات ما دامت تزعم أن غايتها واحدة هى خدمة الحق والخير ، وأن يكون القائمون على هذه الجمعية أمناء يعلمون أن لكل مسلم حقاً فى أموالها يحاسبهم يوم القيامة على كل قرش منه أنفقوه فى غير وجهه ، وعلى كل مقعد للجمعية قعدوا عليه لغير مصالحها ، ودار لها أقاموا فيها سافة لغير خدمتها ، وسيارة لها ركبوها من غير ضرورة لركوبها ، ورواتب أخذوه لأنفسهم أو أعطوه موظفاً أقاموه ، ما دامت المصالح العامة تسير بغير هذا الموظف ، وتضمن بغير هذا الراتب.

فهل نرى هذا اليوم ؟

إذا لم أره ، فحسبى أنى قد رأيت حقيقة هذه الجمعيات وكنت لا أرى من قبل إلا الستار اللماع الذى يخفيها

— ٤ —

وكنت أقرأ مهاترات الصحف الحزبية فى مصر والشام ، وما تسوق من تهم ، وما تصب من فرى ، فأرى المبالغة ظاهرة ، ولـكنى أقول أنه لا دخان من غير نار . ما كنت أظن أن القحة فى الشر تبلغ برجل أن يفترى كذباً يعلم أنه ان يصدقه أحد ، ولا يقبله عدو فضلا عن صديق ، وأحسن الظن بالبشر ، فاحسب أنه لا يزال فى نفوسهم بقية من الوفاء والحياء ، فهم يقدرون الاخاء ، ويستحيون من اختراع الكذب المحض ، فلما قرأت ما كتب فى الصحف عنى وعن غيرى وجدتنى قد وضعت ظنى الحسن فى غير موضعه وأنا رجل فىّ نقائص كثيرة ، وعيوب جمة ، ويستطيع من يكتب عنى أن يعرض لها ، فيكون قد نال منى وبلغ ما أراد من هجائى ، اما أن تبلغ بكاتب قلة الفهم ، والجهالة بأصول الشتم ، إلى أن ينسى عيوبى كلها ثم لا يلقى إلا أشياء أنا أبعد الناس عنها يلصقها بى فيضحك الناس عليه ، فهذا يدعو إلى الأسف على ضياع (فن الهجاء) فى هذه الأيام .

لم تجد هذه الصحف ما تقوله عنى إلا أن تعرض تعريضاً غامضاً بسيرتى فى العراق ، وتقول أنى أسأت بقلمى لوطنى لأنى انتقدت فى الرسالة ما كان فى احتفال الجلاء من تكشف وبلاء ، وتنقل عن مجلة تصدر فى دير الزور أنى كنت من صنائع الفرنسيين

أما سيرتى فى العراق ، فإن هؤلاء يعلمون أن الرسالة تقرأ فى العراق أكثر من جرائدهم ، وأنا أستحلف فى الرسالة كل من يعلم عنى مخزية فى العراق أن ينشرها فى الصحف أو يبعث بها إلى هؤلاء الخصوم . وماذا صنعت فى العراق ويحكم ؟ هل فجرت؟ هل سرقت ؟ هل كنت جاهلا فى العلم الذى أدرسه ، أومهملا فى العمل الذى أمارسه ؟ وهل كان فى كل من قدم العراق مدرساً ، من هو أحفظ لوده ، وأكثر (بعد الدكتور زكى مبارك) كتابة عنه منى ؟

أما صلتى بالفرنسيين فمن كان يعلم أنى عرفت فرنسياً غير من كان معلماً أو مستشاراً فى الوزارة فليقل ، ومن كان يعلم أنها خلت سنة مدرسية من نقلى مرتين لخلافى مع الوزارة — وكانت الوزارة

هي المستشار ، أو بعلم أني مدحت فرنسياً بلسان أو قلم أو أعنته بيد أو يعرف رجلا كتب في سب فرنسا مثل الذي كتبت ، حتى يوم سقطت باريز وكانت الحرب مستعرة ، والفرنسيون حاكمين؛ فليقل

أما أني أسأت لوطني في الرسالة فهذا هذيان لا يقبل من محموم . وهل جرى قلم كاتب في القديم والحديث ، بوصف محاسن الشام ، وتمجيد أيامها ، وتصوير جهادها ، بمثل ماجرى به قلمي في الرسالة منذ سنة ١٩٣٣ إلى اليوم ، وفي فتى العرب ، واليوم ، والف باء ، والزهراء ، قبل أن تنشأ الرسالة ، وهذا كلام ما كنت أظن أني سأقوله يوماً من الأيام ، ولكني اضطررت إليه ، وأنا أعتذر إلى القراء ، وأستغفر الله ، ولن أعود إلى مثله

— ٥ —

وبعد فأنا رجل قاض وأديب ، ولكني لم أكن أعرف قبل هذه الأيام قيمة ما أنا فيه ، ولقد حمدت الله أن انتهت هذه الأزمة وعدت قاضياً أقول الحق أيا كان أثره ، وأديباً يشرك قراءه في نعيمه وبؤسه ، وخواطر نفسه ، وحديث يومه وأمسه ، لا يكتم عنهم أمراً ، ولا يمسك سراً ، ونجوت من السياسة وشرورها .

ومالي وللسياسة ؟ وما لبست لها لباسها ، ولا أعددت لها سلاحها ، ولا عرفت مسالكها ، ورب جاهل جال في الطرقات ، وصاح في المواكب ، وولج وخرج ، وخالط الكبار والصغار ، وسحب الأعلياء والأدنياء ، وعرف لسان كل فخاطبه بلسانه ، أقدر على السياسة مني ومن كل أديب في الدنيا وكل عالم . ورب رجل مثل هذا لا يموت حتى يصير اسمه ملء الأسماع ، وملء الصحائف ، ويكون علماً في طريق التاريخ ، وآلاف مثلي في (أخصاصهم) لا يدري بهم أحد !

ولكني راض بما أنا عليه ، قانع به ، لا أبتغي أكثر منه ، وهل أبتغي أكثر من مرتب كاف يريحني من الكدح للعيش ، والسعي للخبز ، وعمل لا يأخذ من وقتي وذهني إلا الأقل ، أقوم به بما أستطيع من الأمانة ، فآخذ الراتب بما يمكن من الحل ، ثم أتصل بقراء أشاركهم أفراحي وأتراحي ، وبصحب آنس بهم ويأنسون بي ، وأهل أخلص لهم ويخلصون لي ؟

فما ذا بعد هذا ؟ وهل النائب أو الوزير أو الرئيس ، أسعد نفساً ، وأهدأ بالا مني ؟ وهل السلطان أكبر من الأديب ؟ هل النعمان أعظم من النابغة ؟ وسيف الدولة أجل من المتنبي ؟ والخديو عباس أخلد من شوقي ؟ وهل يبني الحكومات ويهدمها ، وينشئ الممالك ويدمرها ، ويرفع الأمم ويخفضها ، إلا الأديب ؟

فمالي وللسياسة ، وأنا قد تشرفت بأن أسير في ذيل ركب الأدباء ، إلى سوح الخلود ؟

***

لقد كانت تجربة لن أعيدها ، ولو جرتني إليها كل حروف الجر . لقد كانت تجربة تعلمت منها دروساً جمة ، أهمها أني لست مخلوقاً للسياسة ، إن السياسي هو الذي يقول للحمار : أنت غزال بأذنين طويلتين ! وأنا لا أقول للحمار ، إلا يا حمار ، فإن غضب فدونه (بردى) !

(القاهرة) علي الطنطاوي

وزارة العدل

التفتيش الاداري والكتابي

إعلان

تعلن وزارة العدل فقد دفتري الزواج رقم ٢٥٦٨٧٥ والطلاق رقم ٦٢٢٧٣ مطبعة عملية الشيخ عبد العزيز حسن بركات . أذون النجيلي وأولاد الشيخ مركز أبو المطامير وبكل منهما أصول ثلاثة عشر عقدا مقيدة والباقي به سبعة عشر وبرانياتها . فكل من عرض عليه هذان الدفتران أو عثر عليهما بأي الطرق أن يعلم أنه لا قيمة لهما وإن إستعمال الأصول والبرانيات أو أحداث أي تغيير في أصول الاشهادات المحررة بعد تزويراً يعرض مستعمله للمحاكمة الجنائية ٧٦٩٠